

ضياء نجم في غابة

دفتر يوميات وقصائد بعيداً عن البيت



لوحة حسين طريبه

البرهة العربية الراهنة، لا تبحث إلا الأسي والام، بعيدة كانت أم قريبة. أسرح النظر في الأشجار العتيقة الملتفة بجذوعها وأغصانها وجذاميرها غير عابئة بحروب البشر وفنائهم، يُقارب سيرة (روسو) ويختزلها، مما جعل انسجام النظر والتحديق الشارد في أشجار الغابة الصغيرة مع مقولات روسو ورؤا التي تشبه الشطح الصوفي، حول الحضارة وقذاراتها المرضية والوبائية «إن تقدم العلوم والفنون يفضي إلى إفساد الأخلاق... وحينئذ إلى (إنسان الطبيعية) الفلصري الحر المطمئن الذي لا تُحرك حياته المصالح والصراعات التي بالضرورة تفضي إلى سفك الدماء والمجزرة...»

وبالبالغ الطرافة والمفارقة في هذا السياق، حين بعث (روسو) بمشروع كتابه «خطاب التفاوت بين البشر» إلى (فولتير) والآنثان من أبرز مفكري عصر الأنوار والعقلانية الحديثة الذي مهد بشكل حاسم لانبعاث الحضارة الأوروبية والبشرية. ضاق فولتير ذرعاً بمقولات زميله المشغوم واليهو الصانع ضرورة والبناء الحضاري وإنجازاته الدستورية والمؤسسية والقانونية (العقد الاجتماعي) وبين حينئذ إلى فجر بدايات الكائن على هذه الأرض والظفرة والغريزة، فكتب فولتير رده الساخر «لم يُسخر أحد فوره بقر ما سخرته أنت لكي تجعلنا شبهيين بالبهايم، يستتهي الإنسان حينما يقرأ خطابك أن يعيش على أربع».

لو اطل (روسو) راهناً من قبره سيرى ما أنجزته الحضارة من عظمة وابتكارات كان نزوعه إلى نقيضها، رغم مساهمته الفاعلة في صياغتها، لكنه يرى بشكل أكثر انسجاماً مع رؤيته وحُسنه، ذلك الجانب المظلم اللوشي الدامي في السحق والتدمير على مستوى الكوكب الذي انقرض منه شبح (الإنسان الطبيعي) وضمحل ليجد رجال الأعمال والوقائع والطبقة، بارقامها الفلكية ومسوخات الجشع والمال.

تبدى (روسو) أنه من ذلك الرعيل من الفلاسفة النادرين في تاريخ المعرفة ربما، أولئك الذين يغنيهم فكر التناقض ويغريهم التباين الغريب بين الواقع والحلم والحنين، فهو يعرف استحالة بعث «إنسان الطبيعة»، والوقائع راهنا ومستقبلاً هي التي تُؤرخ للتقدم الحضاري علماً وفناً وابتكارات لا تنتهي عند حد، لكنه احتفظ بحلم الشاعر وحده العميق.

الدلالات حد الانفجار، تبادر إلى ذهني أن قائلها يقطن بلداً مثل فرنسا طقساً واجتماعاً وحضارة، حيث الجلوس الاختياري في تلك الغرفة الموصوفة، يمكن أن يكون مختبراً بلخص العالم، الأماكن المغلفة بالطقوس، جلوس حر في غرفة تمتد لأمتار، لكنها بحجم الكون دلالة ومعنى، يمكنها أن تمتص الشر والعنف اللذين هما من طبائع البشر الأكثر عمقا وأصالة، ويتجنب صاحبها الارتطام بالخارج حيث يسكن الشر وينتشر العنف والصامت الخبيء أو الصارخ الفصيح، اللجوء إلى الغرفة لجوء إلى سكينه الداخلي وهدهوته مقابل الخارج وصخبه.

بهذا المنحى تأخذ الغرفة بعدها الرمزي وليس المكاني فحسب. لكن انطلاقاً من هذا الأخير وسماته المتجسدة في غرفة يحتويها منزل وحي ومدينة أو قرية، لكن بما أن شذرات من هذا النوع «حمالة أوجه» فهذا (والعبارة الأدبية عامة على الأرجح كذلك) البعد الواقعي الحسي للغرفة، ينقلب دلاليًا، إذا كان في بلد عربي على سبيل المثال وخليجي على الأخص، حيث اللجوء إلى الغرفة أو الأماكن المغلقة بالتكييف والهواء الصناعي ضرورة وإجباراً كهروب من جبروت الطقس وحرارته البالغة، هنا ينتفي فعل الاختيار في معظم أوقات العام، للجلوس الحر في الغرفة داخل البيت، لينطلق منها الخيال المنصر إلى مناطقها الشاسعة ممتصاً عنف الخارج المدلهم الذي يغري عنف الداخل الخبيء بالانطلاق والانفجار.

فتجسد الشر بكسلوك ونمط حياة، أفراداً وجماعات ودولاً.. لكن العزلة، إذا أخذنا الغرفة كمعدن رمزي للعزلة عن الحشد وقيم القطيع المهيمنة، تبقى ضرورة في كل زمان ومكان، ولا يمكن للإنسان، البدع خاصة، أن يحقق شيئاً ذا معنى إلا في ظلالها العميق.

العبارة حمالة أوجه ودلالات وربما ثمة بعد لاهوتي فباسكال بجانب صفته كعالم فيزياء وفيلسوف فهو لاهوتي يربط الوقائع والنظريات بأبعاد لاهوتية. وربما غير ذلك.

هذا الصباح في حديقة فندق (السانت بول) بمنطقة (همر سميت). هذا الفندق الذي يحمل علامة تاريخ حاسمة في التاريخ الأوروبي، كونه احتضن الاجتماع الذي سيقلب معادلة الحرب الكونية، بين ويستون تشرشل والرئيس الأميركي أيزنهاور، مع جزالات الحرب. ومن أفضه ينطلق إنزال (النورماندي) الذي احتفل أحفاد المنتصرون بوقائعه منذ شهر من هذه اللحظة التي أتسلى بالكتابة في فناءه الأخضر، وقد كان سكني فيه بمحض الصدفة فتذكريات الحروب والمعارك في

«الدودة هي الإمبراطور الوحيد والأكثر خبرة»، بشأن التغذية، فنحن نسنن الكثير من المخلوقات لكي نسنننا، ولكننا نسنن أنفسنا للديدان...»

أقرأ هذه العبارة لشكبير التي تعيد للحن الجنائزي لمآلات البشر ومصيرهم وتذكر الأباطرة عبر التاريخ، بأنهم ليسوا أعظم من دودة الأرض، فإغرة شديقتها بشيق انتظار زيارتهم الأخيرة. الدودة أو الديدان التي سيكونون مع حاشيتهم وجندهم في ضيافتها الأزلية عمًا قريب... هذه المرة هي التي ستغمرهم بركها ودفق نعمها السامية جهة الافتراس والتكثير والحو.

لكن الأباطرة لا يريدون أن يتذكروا، أن يعكس صفو معيشتهم وبذخه أي معكر، مهما كانت بدايته وحتيمته الصارمة التي لا فسك منها. رغم كل التناغم والقصور والأسوار العالية والجيش (... الفيت كل تميمه لا تنفخ) الأباطرة لا يبرعون عن غواياتهم وظلمهم الساقط لحياة البشر والحيوان والنبات، حتى تستلمهم تلك الهوام الأسطورية كي تذكرهم بماضيهم المجيد، وربما الندم ولات ساعة مندم، وربما سيكونون في مكان آخر خارج الندم والغبطة والعقاب.

لكن الأكيد أن الدودة-الهامة، ستكون في استقبالهم كامل جبروتها وكامل الصفات التي كانت تزين حياتهم ببريقها السحري الأخاذ... أقرأ العبارة الشكسبيرية على سبيل الصدفة في الحديقة العامة بهذه المدينة الوليئية ذات الصيف الشتوي الممطر فوق البحر وعلى قنوات الأنهار، حيث قرصانة الشمال كانوا يعبرون بلحاهم الصهباء الممزجة بالعواصف والنبذ والذين لم يكونوا بحاجة إلى قراءة شكسبير أو البيوت، كي يتذكروا ويدركوا صواق الحياة والمالات والمصير، فهم يمتطون وقائعها اليومية وأشباحها المتناسلة، في ظلمات المياه والأعماق كل لحظة وهنيئة تحملهم إلى الأبعد والأكثر خطورة ووحشية. الحان الكنائس في غزارة إجراسها تتوالي مججلة في هذا الفضاء المدلهم البهيج... إنه يوم أحد...

وأقرأ أيضا لباسكال «كل الشر الإنساني بسبب واحد: عدم قدرة المرء على الجلوس هادئاً في غرفة». بعد قراءتي عبارة الفيلسوف الفرنسي التي هي من تلك العبارات أو الشذرات المكثفة بالمعاني

حقا بها من انقلابات وصدوع، أفضت إلى هذا القبح شبيه المطلق، أرض غبراء كابية لا تنزل النعمة ساححتها ولا تنزل الرافة والحنان.

القرويات يحملن الغروب في جرار الفخار على الرؤوس والاكشاف الحطايون، أحلام الشجر المكسور وقوداً لثناء قادم رجال الأعمال يحملون الحقائق المثقلة بالمظالم والجروح..

عطر حضورك يملا أفاقي بحكمة الورد وجنون الأطفال.

كم أنت واهبة للحياة أيتها الأشجار أيتها الجبال والغابات كل هذه الحيات، ما ظهر منها، وما بطن أكثر، ترعى وتتغذى في ظلال مجدك الناسق. كل هذه الطيور والحيوات، والجوارح والسباع، تتناسل جيلا بعد آخر في أزلك الذي بلا حدود.. يبرغ نمر مرقتش من زرقتك الحالكة. النمر يحمل جمال الآلهة وتمرد إبليس ذئب يعوي على مقربة من بحيرة ذئب الفقد يعوي قرب البحيرة التي انحصر في تخومها (لودفيك الثاني) من فرط عواصفه ورؤاه.. مزداة بالنجوم والنيازك أنت تتساقط مع الأوراق الخضرة الأرجوانية في حُضنك التليد أيتها الناطقة بلسان الغيب ولهيب الحواس.

«في كل حبة رمل يمكن أن نرى العالم بأكمله...»

كم من العوالم في رمال البحار العُمانية الشاسعة! لكن القوم لا يرون البحر والرمال، ولا يرون أنفسهم.. عمى ورائي ومكتسب، مُستحكم وعندي.

مع كلبتها (آخر ما تبقى من حطام الدنيا) تتذره في الحديقة ذات الأبراج والمتاميل، المرأة المسخة ذات المظهر الأستقرائي. لا تتذكر مجد الحضارة، ولا مغامرات الجسد والمعرفة، والذاكرة.

مثلما حبة الرمل تلخص عالماً في رحابها اللامرئية، فهذا العصفور الصغير الإصهوب الذي يتقافز أمامي في صباح ماهول يغيوم تطل من قسماتها شمس رحيمة، يلخص عالم الطيور والغابات في حركته وصوت وحيه الرياني، يسرخ وكانما في حقول أبدية خالدة..

الخلود يتناهى أحياناً في حيوات متناهية الصغر. تكاد لا ترى على وجه البسيطة والتاريخ الصاخب بالقادة والرموز، بالحروب والاكشافات والإساطيل النرية..

بعد قليل: تذهب الأشجار إلى غروبها تعانق الظلال والأشباح.

«من أخطائه المنايا قيّدته الليالي والسنون» (الخليل بن أحمد)

في الركن القصي من مقهى كوستا المضاء الجوانب والحواف، نرى النذل جيئة ونهابا، وسط غيمة خفيفة وكانما في كهف، أشباحه ورسومه تتموج بفيض غموضها السحيق. من طاولتك تنظرن إلى ركني القصي نظرة عاشقة أضناها غرام البحث عن ضالة جوهرها الشريد. سرحت في رجاب النشوة طويلا تخيلت دموعاً وأشجاراً برية، عصفير وغنما يسرح بها عذارى وعشاق.. لكن الاكتشاف لم يكن اليماء، حين عرفت أنك لا تنظرين إلى أحد.

كان هولكو يزهو بكبريائه فوق الجبال والهافات دانت له الأمم والممالك أخصنته تخطف البرق والطين من وكناته قبل أنيلاج ضوء الصباح وحين حانت ساعة احتضاره لم يتذكر إلا مؤخرة امرأة قوقازية تهتر بمشرب في الساحة العامة بينما الجثث تتوزع في الجنبات والأفاق.

لست من العابرين ولا من المقيمين. لست إلا ذلك الشبح الامرئي وهو يحوم فوق جثة تاريخ أحواله الأعاصير الهوج إلى أشلاء وركام.

الراجلون في بهو الفندق، بالمناكب والاكشاف يتدافعون تدافع الموتي في قبورهم التي تبعثرت من غير شواهد ولا أشجار. موظفة الفندق في حركة عاصفة لا تفكر إلا في آخر الأسبوع وعطلة هائلة.

من أين يأتي كل هؤلاء التائهين الحيارى والثقبلي الاحمال؟ من كل الجهات يتدفقون كهدير مياه أسطورية. لم يعد هناك مسيح يُسند أرواحهم التي توشك على الاضمحلال.

الحقائب مُختمة والقلوب جريحة.. يا حادي العيس ما في الهوادج من أحد والمسافات مصبوغة بدماء الأجيال والذين عادوا لم يشهدوا أثراً لنمازل كانت ظل مغيب، رماذ غصني حيث كانت الريح تهفو والسماء تحن إلى ساكنيها حين لا فرق بين سماء وأرض.

ولائم الهية وبشر في شغاف القلوب.

في أي بقعة أو صقع وطأت لأول مرة قدم الجد الأول، بعد مغادرته الفردوس ونفيه بسبب الخطيئة السانجة التي أسست لجمال الخطايا والجرانم اللاخقة على مر الأزمان وتصرمها؟ في أي بقعة من كوكبه المنكود كارض للعقاب والنأي عن السعادة، حين قال: (...) «تغيرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغبر قبيح» كأنها كان ذلك الجد يعرف قبلاً تلك البلاد، أرض المنفى الأخير. حسب ما توحى العبارة المنسوبة إليه، وما



سيف الرحبي شاعر عُماني

«من أخطائه المنايا قيّدته الليالي والسنون» (الخليل بن أحمد)

في الركن القصي من مقهى كوستا المضاء الجوانب والحواف، نرى النذل جيئة ونهابا، وسط غيمة خفيفة وكانما في كهف، أشباحه ورسومه تتموج بفيض غموضها السحيق. من طاولتك تنظرن إلى ركني القصي نظرة عاشقة أضناها غرام البحث عن ضالة جوهرها الشريد. سرحت في رجاب النشوة طويلا تخيلت دموعاً وأشجاراً برية، عصفير وغنما يسرح بها عذارى وعشاق.. لكن الاكتشاف لم يكن اليماء، حين عرفت أنك لا تنظرين إلى أحد.

كان هولكو يزهو بكبريائه فوق الجبال والهافات دانت له الأمم والممالك أخصنته تخطف البرق والطين من وكناته قبل أنيلاج ضوء الصباح وحين حانت ساعة احتضاره لم يتذكر إلا مؤخرة امرأة قوقازية تهتر بمشرب في الساحة العامة بينما الجثث تتوزع في الجنبات والأفاق.

لست من العابرين ولا من المقيمين. لست إلا ذلك الشبح الامرئي وهو يحوم فوق جثة تاريخ أحواله الأعاصير الهوج إلى أشلاء وركام.

الراجلون في بهو الفندق، بالمناكب والاكشاف يتدافعون تدافع الموتي في قبورهم التي تبعثرت من غير شواهد ولا أشجار. موظفة الفندق في حركة عاصفة لا تفكر إلا في آخر الأسبوع وعطلة هائلة.

من أين يأتي كل هؤلاء التائهين الحيارى والثقبلي الاحمال؟ من كل الجهات يتدفقون كهدير مياه أسطورية. لم يعد هناك مسيح يُسند أرواحهم التي توشك على الاضمحلال.

الحقائب مُختمة والقلوب جريحة.. يا حادي العيس ما في الهوادج من أحد والمسافات مصبوغة بدماء الأجيال والذين عادوا لم يشهدوا أثراً لنمازل كانت ظل مغيب، رماذ غصني حيث كانت الريح تهفو والسماء تحن إلى ساكنيها حين لا فرق بين سماء وأرض.

ولائم الهية وبشر في شغاف القلوب.

في أي بقعة أو صقع وطأت لأول مرة قدم الجد الأول، بعد مغادرته الفردوس ونفيه بسبب الخطيئة السانجة التي أسست لجمال الخطايا والجرانم اللاخقة على مر الأزمان وتصرمها؟ في أي بقعة من كوكبه المنكود كارض للعقاب والنأي عن السعادة، حين قال: (...)